الأخبار ■ الاثنين 5 تشرين الثاني 2012 العدد 1851

رحيل

عاصم سلام
مقاوم بخيبات كثيرة

رهيف فياض: أعطى لحراكنا وزنًا

بعد عشرة أشهر من الصراع مع المرض، غيّب الموت أمس المعمار اللبناني عاصم سلام. نقيب المهندسين السابق، الأستاذ الجامعي والمقاوم الملتزم، والأرستقراطي النبيل. ولأنه كذلك، لم يسمح للمرض أن يهزمه، فحرص في الأشهر الأخيرة على العمل، متصدياً لأكثر من معركة ومساهماً في أكثر من نشاط

مهى زراقط

حتى اللحظة الأخيرة، كانت مفكرة عاصم سلام تسجّل المواعيد. أول من أمس، كان على موعد مع تسلّم الدكتوراه الفخرية من الجامعة العربية. لم يستطع الذهاب، فمنحت له غيابياً وسلّمت لأولاده. أما صديقه المهندس ميشال عقل فكان يعوّل على حضوره لإطلاق كتابيه الجديدين في الثلاثين من الجاري. وقد طبع البطاقات، ووزّع حوالى 500 منها. قبل خمسة أيام فقط، قال له سلام عبر الهاتف إنه قد لا يستطيع الحضور لأنه متعب. المعلومة نفسها وصلت إلى صديقه المعمار رهيف فياض، الذي أخبرته فاسو، زوجة سلام، أنه ليس بخير. توقع الصديقان الأمر، لكن وقع الخبر بقي مؤلماً. «أنا أحبّه» يقول كلّ منهما على حدة. لا تخرج هذه العبارة على لسانيهما في لحظة انفعال حزناً على صديق فحسب، بل عن وعي. تسمعها على لسان فياض بعد أن يسرد العديد من المحطات المهنية والنضالية في حياة سلام الذي يصفه بـ«المعمار المقاوم، الفنان والممتاز». ويقولها عقل بعد أن يصف رحيل سلام بأنه «خسارة للبنان والعالم العربي».

ليس في الأمر مبالغة. ولا يعود الأمر إلى ما قدّمه سلام إلى العمارة العربية فقط، بل إلى ثقافة الرجل والتزامه. منذ سنواته الأولى، كان عاصم «بيك» سلام، الراحل عن ثمانية وثمانين عاماً، يرافق والده في رحلاته إلى فلسطين. هناك التقى بالفنان جبرا ابراهيم جبرا (1919 . 1994)، الذي كتب له رسالة توصية إلى جماعة كامبردج في بريطانيا، حيث كان يدرس. وبالفعل انتسب إليها ليدرس العمارة فيها بعدما كان قد تخرّج من الإرسالية الفرنسية و«الإنترناشيونال كولدج»، لا من «المقاصد» كما قد يُتوقّع من بيروتي ينتمي إلى عائلة سلام. لطالما حرص سلام على الإشارة إلى هذا الأمر ليؤكد أنه لم يخضع لتربية دينية متشدّدة.

بعد عودته إلى بيروت، أسّس مع ريمون غصن قسماً للعمارة في الجامعة الأميركية، ودرّس فيه حتى عام 1977. يتذكر المعمار رهيف فياض أنه استمع إليه محاضراً في «الندوة اللبنانية» عام 1975 «وقال يومها كلاماً شكل مفاجأة لي أنا الطالب الفرنكوفوني في جامعة الـ alba. فقد قال إنه لا عمارة لبنانية، بل إسلامية عربية».

هذا الأمر ينسحب على أعمال سلام، «المقاوم معمارياً». يشرح فياض «كان سلام يرفض سيطرة العمارة المستوردة ووصفها بالعمارة (مع أل التعريف) والحضارة الغربية بوصفها الحضارة. كان مقتنعاً بأن العمارة يجب أن تكون ابنة مكانها. هكذا بنى سرايا صيدا وجامع الخاشقجي ومدرسة برمانا العليا وبعض أقواس وزارة الثقافة»، لافتاً إلى استخدام سلام للحجر الرملي (كمادة) والأقواس والجدران

> لم يعد يحب الخروج من منزله الجميل ليجد بناية من عشر طبقات مرتفعة في وجهه

الصلبة (من حيث الشكل). لقد قرأ العمارة على أنها تنبت من الأرض، يصل الجدار فيها إلى التراب، في حين تقوم العمارة الغربية (لوكوربوزييه) على الأعمدة وتترك الأرض حرّة، زعم أنها لإنشاء حديقة، فتبيّن أنها تتحوّل إلى مواقف سيارات أو مستودعات».

فلسفة سلام المعمارية، القائمة على المحافظة على التراث، هي التي تفسّر معركته ضدّ مشروع إعادة إعمار وسط بيروت. المشروع، كما أنجزته شركة «سوليدير» دمّر تاريخ بيروت. كتب سلام كتابين عن الموضوع (راجع الإطار في مكان آخر من هذه الصفحة)، وعدداً من المقالات الصحافية. كان همّه أن يبرز موت الذاكرة الجماعية من خلال طرد أصحاب الأملاك من «البلد». هذا هو اسمها يقول فياض منفعلاً. ما معنى «داون تاون»؟ هذا اسم لا نجده إلا في أميركا لأنه لا تاريخ لها، أما نحن فكان عندنا «البلد. ساحة البرج، باب ادريس... هناك كنت نتظاهر، نذهب إلى المقاهي، إلى السينما، يوم توفي الرئيس عبد الناصر كنا هناك. هذا المكان الجامع أصبح مكاناً للأغنياء».

يبتسم فياض عندما نسأله عن انتساب سلام إلى «حركة التجدّد الديموقراطي»، وعن تصالحه مع ساحة الشهداء خلال تظاهرات عام 2005، قبل أن يعود ويجري نقداً لها. أما بالنسبة إلى حركة التجدّد، فهو لم يتردّد في القول عام 2009 «موجود فيها بالاسم. يُحرجني أني محسوب على حركة لم أعد أشاطرها اقتناعاتي». يقول فياض «لقد تطوّر عاصم كثيراً، وهذه المراحل كانت أساسية لكي ينتهي إلى ما نعرفه عليه، مقاوماً أشد شراسة لسوليدير، مناصراً للفقراء وأصحاب الحقوق، وملتزماً حتى اللحظات الأخيرة. لقد أعطى لحراكنا وزناً».

لم يكن تصدّي سلام لمشروع الحريري، مطلع التسعينيات، المرة الأولى التي ينخرط فيها في العمل السياسي على نحو مباشر. فهو كان قد شارك، في الرابعة والثلاثين من عمره، مع عمّه صائب سلام في ما يعرف بـ«ثورة 1958». والطريف في الأمر أنه كان، خلال مشاركته في الثورة ضد الرئيس كميل شمعون، يتولى تصميم قصر الأخير الشهير في منطقة السعديات. لكن «المعركة»

«جنتلمان إنكليزي» بروح عربية

جامع الخاشقجي

يوارى النقيب السابق للمهندسين، عاصم سلام، في ثرى مدافن العائلة في الأوزاعي. أما مراسم الصلاة على روحه، فتقام ظهر اليوم في جامع الخاشقجي، الذي حمل توقيعه. وفي وصفه للتصميم، قال عنه المهندس الباحث إيلي حداد في مقالته: «الحداثة ومسألة الهوية» المنشورة في مجلة «المهندس»، العدد 27 تموز 2011، إنه «من روّاد البحث عن القاسم المشترك بين العمارة الحداثية وخصوصية المكان وهويته العربية بنحو خاص، ومن أعماله جامع الخاشقجي 1973 في بيروت الذي ارتكز على مخطط النجمة المربعة ذات الزوايا الثماني، فيما حافظ على تفصيل القطع المعمارية من الحائط الحجري الرملي والهيكل الباطوني إلى السقف. وبالرغم من كون هذا البناء حداثياً بامتياز، إلا أنه أيضاً مطبوع ببعض المزايا الخاصة التي تؤسس لقراءة معاصرة للتراث الإسلامي دون الانجرار وراء التقليد ونسج الأشكال القديمة».

ربى أبو عمو

يصعب تحديد الفكرة التي تستحق أن تتصدّر موضوعاً عن عاصم سلام. هل يكون المرض والموت اللذان حرماه شغفه بالحياة؟ أم نضاله المعماري والنقابي؟ عائلته وأصدقاؤه أصرّوا على نقل

> صدقوا أنه مات وصدقوا أكثر أنه باق في الأحياء والأبنية التي صممها

تفاصيل شخصيته إلى الورق. أرادوا إيصال طاقته الإيجابية والثورية إلى الناس، الذين حرص عليهم طيلة حياته، حين رفض أن يضع عمارته في وجه النسيج الاجتماعي. أرادهما متماهيان، ونجح. عَكَسَ ذلك في كل تفاصيل حياته. كأنه أعاد إحياء ساحة البرج، التي قضت عليها «سوليدير» في بيته. شرّعه للجميع. حزن منزله على فراقه من دون مغالاة في البكاء. لم تنتهك عائلته وأصدقاؤه حرمة الموت حتى في ضحكاتهم، الذي يأتي بمثابة فاصل. صدّقوا أنه مات. صدّقوا أكثر أنه باق في الأحياء والأبنية التي صممها، فألفوا الغياب المشروط هذا.

يجعلك بيته عاجزاً عن إغماض عينيك. تريد أن تلاحق جميع التفاصيل حتى لا يفوتك أحدها. عرف ذلك، ورغب في تحويله إلى متحف، بحسب ابنه علي. تسأل أفراد الأسرة عن الشخص الأجدر للحديث عنه. يشيرون إلى إيلي نجم وجاد تابت. الأخير في فرنسا. أما نجم، فكان يواجه يومه الأول من دون سلام، هو الذي اعتاد العمل معه منذ عام 1977. كان عاجزاً عن استجماع أفكاره. تخونه قواه بين الحين والآخر. قبل أن يغادر الحياة، خاطبه سلام: «لن أستطيع أن أصرخ في وجهك بعد اليوم». فهذا الثنائي اعتاد التباين في الآراء.

غلب سرطان البنكرياس سلام في اليومين الأخيرين فقط. قبل ذلك كان ميزان القوى لمصلحته. خانته شيخوخته. في ما يتعلق بالمرض والموت، هذا هو القدر المسموح به فقط. فهناك لدى العائلة والأصدقاء ما هو أهم من ذلك للبوح به.

يحكي نجم عن عيش سلام الحداثة وتفاعله مع الحاضر. «كان قادراً على استشراف المستقبل، والركون إلى جذوره في وقت واحد. يتحدث عن أصالته وكونه أكبر معارض لسوليدير». يقول إنه «رفض مغادرة بيته في المصيطبة خلال الاجتياح الإسرائيلي لبيروت. كان نضاله ضد إسرائيل راسخاً، كما إيمانه بالقضية الفلسطينية. ورغم